

## نظام البناء في المدينة الإسلامية

للدكتور

عبد الرحمن فهمي محمد  
أستاذ الأثار الإسلامية  
ورئيس قسم الحضارة الإسلامية  
جامعة أم القرى / مكة المكرمة

## نظام البناء في المدينة الإسلامية

### مقدمة

تمثل المدينة قمة التطور الحضاري في مختلف العصور التاريخية فبناءً  
مدينة لم يتحقق من العج تمعات يعني انتقال الجماعة البشرية من مرحلة البدائية والسلف  
وخلال تحول إلى مرحلة الاستقرار والاستيطان وهذا بدوره يعني انتقال الجماعات  
البشرية إلى مرحلة حضارية جديدة هي مرحلة التمدن أي العيش في المدن.

وقد وردت كثيرة من المصطلحات في كتب الجغرافيين العرب حتى القرن الرابع  
الهجري / 10 م للدلالة على هذه المدن فتشمل عن مصطلح "الجناح" و "الكرو"  
و "الخلاق" و "الستان" و "الطريق" و "الristaq" و "المصر" و "القبة" و "المدينة" وكل من  
هذه المصطلحات دلت العبرانية من حيث التقسيم الجغرافي والإداري و من ذلك  
تجدد خلطا كبيرا في كتابات الجغرافيين المسلمين في استخدام هذه المصطلحات من  
حيث عدم الوصول إلى فروق واضحة بين هذه المستوطنات البشرية في العالم الإسلامي  
ومن ثم يتصور هنا سؤال يفرض نفسه علينا

### ما هي المدينة وكيف تعرفها

ولذلك أن تفسير المدينة على أساس لغوي لا يعطينا الإجابة المطلوبة ، فالمدينة  
لغة من الاستقرار لأن "مَدِينَةً" يعني "أَقْامَ" و هكذا الأمر بالنسبة للقرية فهي  
تعنى أيضا الاستقرار . غير أن فكرة المدينة واضحة لدينا جميعاً فكلنا يعرف  
المدينة بالقياس إلى الريف أو الهرج أو القرى ومع ذلك فإن أحداً لم يعطى  
المدينة التعريف المقنع حتى في آخر ما وصلنا عن معلومات عن جغرافية المدن  
للدكتور جمال حمدان ستة ١٩٧٢م . فنحن نضفي لقب مدينة على مجموعة شديدة التباين  
من الحالات Settlements ابتداءً من البندر المتواضع إلى المدينة  
الإمبراطورية city - empire مثل نيويورك ، ومن معسكر التعداد إلى  
الى معسكر الحرب ولكننا نجمع بينها لأننا ندرك أن بينها جميعاً على الأقل قاسياً  
مشتركاً أصغر يتركز في بعض الأسس الهامة من حيث الحجم والكثافة والتنظيم

(٢)

الإداري والوضع التاريجي، والوظيفي فسكان المدينة في مصر مثلاً يستلزم أن لا يقلوا عن ١١٠٠٠ نسمة بينما في هولندا واليونان لا يقل عن ٣٠٠٠ ره كما أن الحال同様 للκατοικηση της πόλης غير محدد فقد تبدو بعض المدن مكتظة بينما يبدو بعضاً مخللاً فليس هناك اتفاق اذا على قيمة الكثافة كمؤشر مدنى ولوان الولايات المتحدة الأمريكية تستعملها الان بجانب الحجم كثافة الفنسمه في العيل العربي توفر تحديد نوع المستوطنه بعد بحث جيدها .

وكتيراً ما حدثت المدينة بصيغه قبائمه بأن يخلف المكان مدينة بمقتضى مراسيم charter يمنحها حقوقاً و يفرض عليها واجبات معينة تميزه عن الريف كأقامته السوق والصون والأسوار ولزال هذا المعيار الإداري موجوداً رغم ندرته فنراه مستعملاً في بريطانيا وإنجلترا وبلجيكا فمثلاً في بريطانيا نجد المدينة city هي ملکانت مركزاً للسوق على أن مراسيم المدن لم تعرف في مناطق كثيرة من العالم وخاصة في الشرق ، كما أن هذا الأساس الإداري العبنى على اصدار المراسيم الخاصة بالمدن ليست له قيمة كبيرة لأنه اساس لحق ex post facto

— لا أساس معايق فهو نتيجة لقيام المدينة وليس عاملأ أو سبباً لقيامها فالحله لم تصبح مدينة لأنها منحت مرسوماً ، ولكنها نالت المرسوم لأنها قد أصبحت مدينة بالفعل ، أما الوضع التاريجي فهو يتمتع بأمتياز كبير لأن المدن التاريخية التي تدهورت تظل تحفظ بحقوقها وآثارها وقلاعها و أسوارها كأبلغ دليل على قيامها بطورها في حقبة من الزمن و هكذا يحتل بعد التاريخي أهمية كبيرة في الدلالة على المدن ، أما الأساس الوظيفي فهو ايضاً له أهميته في تحديد مدلول المدينة فهو حقيقة مائله في أذهاننا عند ذكر القرية والمدينة ، ويقاد يكون بديهيأ ان القرية هي المحله التي تعيش للزراعة وعلى الزراعة وإن المدينة ماليـس كذلك اذ هي الحـلة الـلـاـزرـاعـيه non-agricultural التفرقه والتـميـز هنا هو نـمـطـ الـحـيـاه genre de vie

(٢)

فالقرية يتعدد نشاطها في اعتمادها على الاستهلاك المحلي بينما الامر ليس كذلك فيما يتعلق بالمدينة ذات العلاقات الخارجية والاقتصاديات المتطرفة والمعقدة وحتى ان وجدت في المدينة مزارع تلكروم او الدواجن فهى مسائل ثانوية جدا في النهاية وليس مبررا في ذاتها لوجود المدينة .

والخلاص ان هناك عددا كبيرا من اس التعريف للمدينة وربما كان لكل مهتم بدراسة المدن تعريفه الاجتماعي والاداري والاقتصادي ... الخ وبعض هذه التعاريف سطحي ثانوى وبعضا شكلى، وان كان اهمها التعريف الوظيفي والاحصائى والتاريخي ومن ثم اصبح الاتجاه السائد للتعريف للمدينة هو التعريف المركب الذي يجمع بين عدة اسس .

### نشأة وبناء المدن الاسلامية

ولنا ان ننتقل الان الى قيام المدن الاسلامية فمن المعروف لنا جميعا ان الاسلام نشأ في الصحراء و مع ذلك فان العصر الاسلامي يعتبر عمر ازدهار المدن سواً منها ما أنشأ المسلمين او جددوه من مدن يونانية و رومانية و فارسية حيث تعمرت وبعد ان كانت المدن في المنطقة الاسلامية تابعة في غالبيتها للمدن الاوروبية في العصور القديمة احتلت مكان المدارء مع ظهور الاسلام وهو العصر النهبي للمدن ولنا ان نشير هنا الى بعض المدن الاسلامية التي بناها المسلمون في الدول العربية كالبصرة سنة ١٤ هـ و الكوفة سنة ١٧ هـ و الفسطاط سنة ٢١ هـ و القيروان سنة ٥٠ هـ و بغداد سنة ١٤٥ هـ و فاس سنة ١٩٢ هـ و المهدية سنة ٢٠٣ هـ و القاهرة سنة ٣٥٨ هـ و مراكش سنة ٤٥٤ هـ .

وانه لغريب حقا ان يقوم شعب نشأ في الصحراء بينما واجه هذا العدد الكبير من المدن، كما قام بتوسيع حجم العديد من المدن القائمة كدمشق وحلب وقرطبة وغيرها .

(٤)

ويمكن ان نلحظ ان وراء هذه الدفعه المدنيه الاسلاميه عوامل متعدده دعت الى قيام المدن الاسلاميه لعل اهمها العامل السياسي والعامل العربي والعامل الاقتصادي والعامل الاجتماعي والعامل الثقافي والعامل التاريخي والعامل الجغرافي والعامل الديني

اما عن العامل السياسي : فقد كان وراء اكثرب من قيام مدينه فكل اسره حاكمه لها اصولها القبلية التي ترتبط بها تحاول بناه عاصمه جديده لها تكون رمزا لها و يتجمع بها اشياعها كما كانت تهجر العاصمه القديمه ان لم تحاول، في اكثرب الحيان تدميرها وقد نقل عنى بن ابي طالب عاصمة الخلافه من المدينه العنوره الى الكوفه لكثره اشياعه فيها ثم كان نجاح معاويه بن ابي سفيان فى تأسيس الدوله الامويه دافعا للقضاء على المركز السياسي للkovوه حيث شيعه على وحلته دمشق محلها حيث اشياع بنى امية في الشام وهذا عندما نقل العباسيون عاصمتهم من دمشق حيث الولاه الامويه الى بغداد<sup>حيث الولاه الفارس</sup> وفي مصر انتقلت العاصمه من الفسطاط الى مدينه جديده هي العسكر ثم القطائع ثم القاهرة وهذا كله تحتفظ العوامل السياسيه وتغيير الولاه فنها في الدوله الاسلاميه مليئه ان نسميه ( بمدن البلاط ) Court cities ( جمال حمدان : جغرافيه المدن ص ١٠٩ ) وهذا امر يتحقق اسلما في بناه المعتصم لمدينه سر من رأى شمال بغداد لتكون مقرا للقواد الآثار كما تجمع اشياع ادريس الثاني الذين قدموا من القิروان ومن خواجي قرطبه وشغلوا العينين الاسلاميين في مدينة فاس وكثيرا ما كانت المدينه تحمل اسم مؤسسها كالهديء والمتصوريه والمعزيه وغيرها .

ويرتبط بالبواعث السياسيه تقوية الروابط بين الحاكمين والحاكمين فقد جوت العاده في الدوله الاسلاميه بان تكون عاصمه الدوله و مركز حكمها هي التي تضم اكبر عدد ممكن من انصار الدوله . واتساعها المخلصين الذين ينزوون عن حوزتها و الذين قاتلت الدوله على اكتافهم . كما يرتبط بهذا العامل السياسي هدف كبير هو تثبيت اقام الدفعه في الارض التي تم الاستيله عليها وذلك لأن أنشاء المدن العاشهه بالادياء السكنيه يحقق ضمان الاستقرار للحكام الجدد في الارض المفتوحة و فرض سيطرتهم

(٥)

عليها ، وما هذه الحالات أو المستوطنات أو المستعمرات التي ينشئها للفزاء  
الإسرائيليون فوق الأرض العربية المحتلة بفلسطين إلا نواه لمدن كبيرة وفق  
المخططات الإسرائيلية .

أما العامل البحري : فهو يعني بناء المدينة على الشواطئ الساحلية  
أو بعيدا عنها ، فالمدينة الساحلية تصبح على مرى الاعداء و الدول القوية  
ذات الأسلحة ، أما المدينة الداخلية فلا تتعرض للخطر الخارجي أو الفزو  
البحري فنجد مثلاً مدن المغرب كالقيروان و فاس و مكناس و مراكش قد امتحنت  
عواصمها في عصور تاريخية مختلفة لأن مواقعها بعيدة عن مناطق الصراع و بالتالي  
بعيدة عن متناول الغزاء فلم يصيّرها ما اصاب السكندرية أو طنجة خلال تجربة  
ميريه .

ولكن هذا لم يمنع الدول الإسلامية في فترات تفوقها العسكري من بناء  
المدن على الشواطئ البحريه كما فعل الخليفة الفاطمي المهدى عند بناء مدينة  
المهدى سنة ٢٠٣ هـ بتونس الحالية .

أما العامل الاقتصادي : فهو من العوامل التي ساعدت على بناء المدن  
الإسلامية بعد تطور اقتصاديات بعض القرى من اقتصاد قروي بسيط إلى اقتصاد  
مدنى معقد فلذلك أن ازدياد حجم الاقتصاد يدعو إلى ارتفاع مستوى المعيشة للسكان  
و انتشار الرخاء العادى كما يدفع الأفراد إلى البحث عن إطار حضاري أكثر تقدماً  
ولكن يتبقى أن نشير أنه ليس بالضرورة أن تتحول كل قرية تحققت لها الكفاية  
الاقتصادية إلى مدينة لأن العامل الاقتصادي ليس هو العامل الوحيد في إنشاء  
المدن أو نشأتها فلا بد أن تتوفر العوامل الأخرى لكي تقام المدينة .

وقد دفع النشاط الاقتصادي بال المسلمين إلى إنشاء مدن جديدة التي تتحكم في  
طرق التجارة المعتمدة من الصين ~~هي~~ وأو اسط آسيا إلى إسبانيا في جنوب غرب أوروبا  
لتكون بمثابة مراحل على هذه الطرق وقد بلغ مدى شهرة العربي في التجارة أن أصبحت  
كلمة عربي في الأورنجية تعنى تاجراً ، ولكن المهم هو أن بناء المدن الإسلامية كل

(٦)

في كثير من الأحيان تلبية لاحتياجات التجارة المتزايدة وقد شكلت هذه المدن الإسلامية نقاط تجارية و مراحل على الطريق وفي نفس الوقت أمنت الدول الإسلامية كمراحل على طريق الحج كما هو الحال في عيذاب التي ظلت فترة طويلة في العصور الإسلامية مركزاً لجتماع الحجاج وتجارة الشرق كذلك (نعميم زكي : طرق التجارة الدولية و مطاراتها . القاهرة ١٩٦٣ ص ١٤٣ ) فهى اذا بمتابه مستودع للتجارة بين الشرق و الغرب وهو نوع من المدن عرف <sup>بـ</sup> الغرافيين باسم مدن المستودعات *Entrepôts* مثل عدن <sup>على</sup> و ينبع وجده كما كانت دمشق و حلب تستقبل كل منها سنوياً ما يزيد عن ١٥٠٠٠ خمسة عشر ألف جمل محملة بالسلع الشرقية لتعود محملة بالسلع المحلية و الغريبة (نعميم زكي : المرجع السابق ص ١٤١ - ١٥٠ ) .

أما العامل الاجتماعي: فان نشأة المدينة في ذاته يعتبر قمة استقرار المجتمع الانساني في مكان معين فعندما بدأ المسلمون في انشاء المدن كانوا قد بلغوا هذه المرحلة من الاستقرار الاجتماعي، و أصبحت المدينة حنزا للنظم والعادات والقيم الاسلامية تنموا وتطور داخل اسوارها و تزداد قدرات المجتمع الاسلامي و مهاراته بحيث تتوافر اليدين التي تبني و اليدين التي تصنع و الرأس الذي يفكر و المهندس الذي يخطط و الوسائل التي تحول الافكار و المخططات الى عمل وهكذا يمكن ان نتصور ان بناءً مدينة يقوم على أساس وفرة العديد من الصناعات المتناسبة لكي ينهض البناء فما ان يصل مجتمع ما الى طور بناء المدن حتى تكون المهن و الصناعات عديدة قد عرف شيئاً من الاستقلال بعضها عن بعض بمعنى ان كل مهارة او صناعة تنتفع لها طائفة من افراد المجتمع لتقانها و احترافها وهذا ما يميز مجتمع المدينة عن مجتمع البايدية ، فالفرد في البايدية غالباً ما يجمع عدة صناعات دون تخصص و يتولى بنفسه او بمساعدة بعض اقاربه واولاده نقل المواد الخام وادوات البناء من مكان لآخر ثم يسرع في العمل

(٢)

أو البناء بيديه و يقطع الشاب ليمنع منها العوارض والقوائم والابواب فاذا جاء طور انشاء المدينة جاء معه طور استقلال الصناعات في المجتمع البشري وهذا التخصص هو اهم مظاهر نمو المجتمع و تزايد حاجياته اذ من غير الممكن ان يتخصص عده افراد في صناعة او حرف دون ان يكون ذلك مرتبطا بأقبال الناس عليها او على مثيلاتها .

ومن هذا المنطلق يمكننا ان نفسر ان ظهور البناء المعيار المعترف والنجار المعترف والنقاء، المعترف والناسوج والخزاف والفنار و من اليهم دليل على ان هناك عدد كبيرا من الناس قد اخذوا يهتمون بالبناء و اشغال النجارة و الصناعات النسجية و الخزفية و المعدنية وغيرها ولو لا ذلك ما ظهر فنيون في هذه الميادين و عندما يبدأ المجتمع في الشعور بضرورة التوسيع في البناء مع اتقانه وهو جمع الادوات والاثاث داخل القصور و القلاط فذلك هو مبدأ التحول الى حياة التحضر و التمدن او بالحرى التحول الى قيام المدينة ومعنى ذلك مرة اخرى ان نشأة المدينة ترتبط بنمو المجتمع و تحضره و تحركه نحو اطار اوسع في المجالين المادي و المعنوي فليست المباني و المنشآت بالطرق و المرافق العامة هي وحدهما التي ينالها التحول بل ان القيم و العادات و النظم و الثقافات تتحول و تتطور كذلك فهذه بغداد بعد ان بناها المنصور سنة ١٤٥هـ مالبثت ان تطورت و اتسع عمرانها و تعددت قصورها و امتدت طرقاتها و مع هذه الجوانب المادية نجد فيها دار الحكمة اي المعهد العالي للترجمة ينقل الى العربية ما يستطيع المسلمون نقله من تراث اليونان و الفرس و المندور في العلوم و الرياضيات و الأدب ولكن هذا التحول المعنوي لا يتم بين يوم و ليلة وانما يحدث خلال سنتين فليس ابطأ من تغيير الشئون المعنوية و التأثيرية للإنسان عبر مسيرته التاريخية .

ويجب ان نشير هنا الى ان الثقافات التي اثرت في نشأة المدن الاسلامية

(٨)

هي الثقافات المتملءة بالتجارب العملية التي ارتبطت بحياة المجتمع اليومية ومتناكلها كالهندسة والحساب وقياس المساحات والاطوال و معرفة المناخ والتربة والقرب والبعد عن البحر وكلها امور حيوية لبناء المدينة و نشأتها بالقرب من المراكز الحضارية القديمة او بعيدا عنها لما لذلك من اهميه بالنسبة للمدينة الاسلامية و رسم سياستها الخارجية وقد كانت كل هذه العلوم و الثقافات مرتدة عند الصينيين والبابليين والشوريين والمصريين بعد يمساعدت الجماعات الاسلامية على بناء مدنها و تخطيطها و اقامة عماراتها على نحو رائع و تخطيط مدرور من تخطيط فيه الدوله الاسلامية مرحلة التجربة والخطأ و قفزت مباشرة الى مرحلة النضوج الثقافي عند تأسيس المدن و العوام و الشفاعة .

هلى ان بعض المجتمعات و الدول الاسلامية لم تكن تشعر بأكتفاء ذاتي من الوجه الثقافي و التقليدي بحيث يمكنها من بناء مدنها بنفسها دون مساعدات تتلقاها من شعوب اخرى بحيث يمكن القول هنا بان الخبره العلميه كان يمكن ان تهاجر من بلد الى اخر او تستuar من قطر لصالح اقطار اخرى وهو ما يسمى في ميدان الآثار الاسلامية بنظام الليتورجيا *Leiturgia* ، وقد افاد هذا النظام في تبادل الخبرات الحضارية و الثقافية كضرورة من ضرورات التشييد و البناء ولدينا امثلة في مدن الشرق الاسلامي فمدينة بغداد لم يتم بناؤها من ١٤٥/١٤٩هـ الا بتعاون العرب و العجم معاً و المسلمين وغير المسلمين سواءً من القليم الذي شيدت فيه المدينة بالعراق او من اقطار و اماكن اخرى نائية عنها مع الاستفادة الكبيرة من الرميد الفارسي الفخم في الم�ارات الفنية المتنوعة و خامه في انشاء المدن الدائرية التخطيط وهو نوع فريد في تخطيط المدن الاسلامية وهكذا قدم العرب الاداره و المال و قدم الفرس الثقافة و المهاره و ما يقال عن بغداد يمكن لهن يقال عن معظم المدن الاسلامية في الشرق و المغرب و الاندلس اذ اعتمد بناؤها على الم�ارات المحلية و الخارجية على السواء بحيث امتزجت فيها الاذواق و الثقافات و النماذج المعمارية و تزاوجت فيها الخبرات العلميه ذات

التابع الميل، بالخبرات الأخرى المجلوبة الوافدة من الخارج .  
 ولكن هذه الثقافات الفنية المستعارة مالبثت ان تحولت الى قابلية ذاتيه في المجتمع الاسلامي بعد ان مادفت قبولا واستعدادا حسنا لفهمها لدى المسلمين فتحولت الى ملكات و امكانيات اسلاميه هاجرت بدورها الى اقاليم اسلاميه اخرى كما حدث فعلا بالنسبة لفن العمارة بالاندلس الذي عبر بحر الزقاق و هاجر الى المغرب و مصر و الحجاز بحيث بدأ شيئا طارئا اول الامر ثم اصبح بعد ذلك متوقعا و وجدانا لدى المغاربة وكما حدث لفن العمارة الفارسية الذي فرض نفسه و طابعه على الدوله العباسية في كثير من عماير مدنها و لكنه لم يلبث ان اصبح بالنسبة للمغاربة مثل فن العمارة الاندلسيه بالنسبة للمغاربه وهناك نقطة هامة في قضيه الثقافات العلميه التي تعتبر دافعا من دوافع بناء المدن الاسلاميه وهي ان هذه الثقافات و ما يرتبط بها من علوم هندسيه و فنون صناعيه لازمه لانشاء و التعمير ليست من الثقافات التي يتم تعليمها بعيدا عن الميدان العملي التطبيقي اذ كانت النظريه و التطبيق في انشاء المدن الاسلاميه متلامحين مخطلتين ولن يمكن في البدايه استقلال احدهما عن الآخر <sup>ولذلك</sup> لم يكن هناك من سبيل الى تلقيهن هذه العلوم في صورتها التقليديه الا عن طريق العمل و التطبيق و الممارسه فمن اراد القوف على شيء من الثقافه الهندسيه المعماريه لابد له من ممارسة اعماله بالبناء و من اراد معرفة فن مد القنوات لابد من العمل و الممارسه في هذا الميدان و هكذا بالنسبة لقامته الابراج و الاسوار و القلاع و من هذا المنطلق كان اصحاب العلم المعماريه فنانين قبل كل شيء اساتذه كانوا او تلاميذ صنعوا يزاولون اعمالهم ، وبمعنى اخر كان المثقف المعماري هو الفنان و البناء المعطري نفسه وكان امرا طبيعيا اذا ان تسبق المرحلة التطبيقيه المعماريه المرحلة النظريه العلميه عند بناء المدن الاسلاميه لأن التطبيق بدوره كان اقوى واكثر نفعا من النظريات التي بدألت تتعايش مع التطبيق جنبا الى جنب

(١٠)

وهناك بعض العوامل التاريخية التي لها دورها في بناة المدن  
الإسلامية ، في بعض المدن كانت مجرد امتداد لمدينه قريبيه منها سبقتها إلى  
الوجود التاريخي فأثرت في نشأتها و افادتها بخبرتها و مكتسباتها الحضارية  
<sup>ونزل الله</sup> كمدينة سامرا (سر من رأى) بالنسبة لبغداد بالعراق و العسكر و القلائع  
و القاهره بالنسبة للفسطاط بمصر ، وعدوه القرويين بفاس بالنسبة لعدوه الاندلسيين  
بالنفرب ، و مدينة الرماق و الزهراء و الظاهره بالنسبة لقرطبه بالأندلس وكل  
هذه المدن قد انفعلت بحضارة المدن السابقة لها و حرصت على محاكاتها .

ولا يخفى علينا ان المدن تتطور بأحدى طريقتين خلا العصور التاريخية  
بعنوان ان بعض المدن تتطور في نفسها و تتغير معالم بعض اجزائها لتحول محلها  
آخر بينما قد تبقى بعض المدن التاريخية على حالها القديم دون تغيير يذكر  
وفي الوقت نفسه تنشأ إلى جانبها مدينة حديثه بالنسبة للمدينة الاولى أو قد  
تبعد المدينة الحديثة بين الطابع الحديث و الطابع القديم الذي نلاحظه في خصائص  
المدينة القديمة و يصدق هذا على أكثر المدن الإسلامية شرقاً و غرباً فيمسق  
على بغداد التي امتدت من غرب نهر دجله إلى شرق نهر دجله و يصدق على القاهرة  
التي امتدت شمالاً و جنوباً حتى أصبحت مجموعه من المدن و المفاواحى تعتقد من خلوان  
جنوباً إلى مصر الجديدة و مدينة نصر و مدينة العاشر من رمضان شمالاً، و يمسق  
هذا بوضوح على مدينة جده التي امتدت شرقاً و شمالاً حتى ضمت إلى احيائها القديمه  
مساحات شاسعة كبيرة حتى اسلامه و حتى السليمانيه و الساليميه و الغالديه و غيرها  
ولكن ثبت ملاحظه هامة يجب ان نشير إليها وهي انه مما تعددت دوافع بناء المدن  
الإسلامية فان العامل الديني يظل هو المنطلق و الهدف ليس فقط بالنسبة لبناء  
المسجد الجامع في قلب المدينة النابض و مركز الشعاع فيها بل في بناء الدور  
ذات الابواب المنكسرة Bent - entrance التي لا تساعد على روعية ما يدور بالداخل  
وندرة النوافذ بالجدران الخارجيه و الاكتفاء بالاقنيه الداخلية .

ولكن المهم الان هو ان نصل الى اجمال المورفولوجية

للالمدينة الاسلامية في المشرق والمغرب ويمكن ان نلخصها فيما يلى :

- ١- مركزية المسجد الجامع في المدينة وتوسيعه لقدم احيائها اذ يمثل المسجد نواة المدينة وقلبها النابض و ذلك قياسا على ما استنه رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة بحيث كان المسجد اول عماره في المدينة تلتف حوله الخطط والحياة والأسواق وبجوار المسجد الجامع كانت تقوم دار الامارة (أى قصر الحكم ) فيما اثناء الملون منه مدارج المذكرة العربية .
- ٢- احاطة السوق بالمسجد الجامع مع وجود الوكالات التجارية مجاورة للسوق ووجود الخانات ومقار الطوائف الحرفية مع شيوخ ظاهرة التخصص في بيع السلع التجارية رغم تباورها ، فيتمطف الدكاكين على جانبي الشوارع الفيقه السقوفة بالبوس المجدول أو الخيام بحيث تنبع من هذه الشوارع روائح تختلف باختلاف السلع التي تباع في محلاتها كروائح التوابيل أو العطور أو الجلود .
- ٣- وجود الادباء السكنية المنفصلة عن بعضها في هيئة تشبه القطاعات بسبب صلة القرابة بين القبائل او بسبب الاختلاف في مهنة واحدة تستعمل لامثلة معينة
- ٤- وجود الشوارع الفيقه والازقة المفتوحة بالسقائف وخاصة في مناطق السوق لحماية العماره ورواد السوق من اشعة الشمس او برد الشتاء وكانت بعض دكاكين السوق تمثل مستودعات للبضائع المستورده ولذلك اطلق على السوق احيانا اللفظ اللاتيني Caesarea قيسارية ، وهو يعبر عن مستودع البضائع وكانت ارضية السوق تبطى بالحجار الصغيره بينما يقام على جانبي الطريق افريزان للماره طاريم وخاصة اثناء المطر .
- ٥- وجود الأسوار حول المدينة بل كثيرا ما زدوجت الأسوار واحيطت بالخانق التي تملأ بالماء وقت الحاجه كما ظهرت البوابات الضخمه التي تقفل على الأحياء وازدادت انتشارها في فترات اختلال الامن وقيام الفتنة والصراعات بين

طائف الجندي او الامرأة او الطوائف الحرفية (المناف).

وقد سبق ان اشرت الى ان حركة الجماد الإسلامي اقتضت قيام نقط ارتکاز يتجمع فيها الجندي وتنزل فيها حاميات المعاذين ولكن يتحقق هذا الهدف كان لابد ان تكون المدينة الاسلامية مصنفة بالسوار كي يسهل الدفاع عنها وكثيرا ما زوالت السوار بالابراج والسلطات والشوق كمرامى للسهام وهي ما يعبر عنها بالزاغل كما تزود المدينة بالقلاء.

و قبل ان نعرض لبعض الامثلة التطبيقية لبناء المدن الاسلامية نريد ان نعرض لنظرية ابن خلدون في بناء المدينة الاسلامية لنرى مدى ما التزم به المسلمون من هذه الشروط التي اضعها ابن خلدون نظريته هذه.

ويقرر ابن خلدون منذ البداية في مقدمته التي تمثل الجزء الاول من كتابه العبر وديوان المبتدأ والخبر « ان اختيارات المنازل (المدن) من منازع الضارة » اعن فالمباني التي تفيها المدينة الاسلامية لاتكون كلها خاصة بالاقرادة بل ان قصما منها يكون من المرافق العامة التي يشتهر فيها ويستفيد منها جميع السكان وطبعا ان تحتاج هذه المرافق لرعاية الدولة ولذلك يقول ابن خلدون « لابد في تصميم الامصار و اختيار المدن من الدولة والملك » كما يقرر ان « الملك يدعوا الى نزول الامصار » فان كل دولة تقوم في قطاع من القطاعات تسيطر على الاستيلاء على المدن الموعدة قبل وقد لا تكتفى بذلك بل تقوم هي بدورها باختيارات بعض المدن الجديدة لايوا حامياتها وحماية حدودها من غارات الدول المجاورة لها.

ولكن المدينة التي تختارها الدولة بهذه الصورة لا يمكن ان تزدهر ما لم تتوفر بعض الشروط لفمان بقائتها واستمرار حياتها، ويشرح ابن خلدون هذه الشروط في فصل خاص بعنوان « هل فيما يجب مراعاته في اوضاع المدن وما يحدث اذا غفل عن تلك المراعاه » ويستهل بحثه هذا بتحديد شرطين اساسيين لقيام المدينة وبقائتها وهما :

أولاً : دفع المضار عنها بالحماية .

ثانياً: جلب المنافع و تسهيل المرافق لها .

ولكل شرط من هذين الشرطين فروع تفصيلية سنعرض لها بالختام ، فيرتبط بشرط الحماية و دفع المضار ضرورة توفير وسائل الوقاية من الآفات الساواية بحيث يتتوفر للمدينة موقع طيب الهواء حتى يسلم السكان من الامراض ، كما يجببعد بالمدينة عن مجاورة المياه الفاسدة والمرور والمستنقعات الخبيثة حماية للانسان والحيوان كما يرتبط بالشرط الاول احاطة الحياة السكنية و مرافق المدينة بسياج من الاسوار المنيعة كما يرى ابن خلدون ضرورة اختيار موقع المدينة على هضبة متوعرة من الجبل حتى يصعب على الاعداء منالها ، أو يدور حول المدينة بحر او نهر فلا يصل اليها العدو الا بعد العبور على جسر او قنطرة فيتفاوض امتلاء المدينة على المهاجمين .

ويرتبط بالشرط الثاني وهو جلب المنافع لاستكمال الوسائل اللازمة للمسيرة الحباء في المدن من حيث توفر الماء و الطاقة اللازمة للمطابخ والمصانع، وتتوفر المزارع لجلب الخضروات والحبوب وتتوفر المراعي لتحقيق الامن الغذائي .

ويختتم ابن خلدون نظريته هذه بالحديث عن ازدهار المدن وانتقامها فالمدينة تتطور ويكبر حجمها وتزداد كثافة سكانها واحيانا اخرى تتراجع وتسير نحو الخراب فكلما توفرت للدولة المؤسسة مقدراتها يقدر ما تتسع خطط المدينة وينفسح ذرعها ك ما حدث بالنسبة لبغداد ولكن اذا ضفت الدولة تغيرت احوال المدينة واوضاعها العامة وخاصة اذا كانت المدينة عاصمة للدولة التي انتهى امرها ويعبر ابن خلدون عن ذلك بقوله « ان الامارات التي تكون كراسى للملك تخرق بخراب الدولة و انقلابها » ولكن اذا ما قدر لمدينة ان تصبح عاصمة للدولة الجديدة استمرت فيها الحياة بسبب نفو المجتمع الجديد وازدياد كثافة الجنود و اتباعهم من رجال الدولة الجديدة كما ان معظم ما تجبيه هذه الدولة من خراج و اموال ينفق في سبيل تحسين المرافق العامة في العاصمة ، وهكذا تزدهر المدينة و تبقى لها حياتها ويعبر ابن خلدون عن ذلك

بقوله " ربما ينزل بالمدينه بعد انقراض مخططها الاولين ملك اخر ودوله ثانية تتخذ قرارا وكرسيا .... فتحفظ تلك الدوله سياجها وتتزايد مبانيه ومسانعها بتزايد احوال الدوله الثانية وترفها و تستجد لعمانها عمرا آخر كما وقى بفاس و القاهرة " .

وألا ننتقل الى الدراسة التطبيقية لكل هذه الافكار والنظريات باختيار مدينة الفسطاط كأحد النماذج العمارة لبناء المدينة الاسلامية .

#### الفسطاط :

انتهت الاعمال العسكريه التي اتمت فتح مصر وهزيمة البيزنطيين على يد عمو بن العاص سنة ٦٤٢ هـ / ١٩٣ م ، <sup>والإمبراطور</sup> القائد العربي ان يتخد الاسكندرية عاصمه للدوله العربيه اقتناعا منه بكفاية مساكنها وعمانها ، فقد أثر عنه قوله " مسكن قد كفياناها " ، ولكن الخليفة عمر بن الخطاب لم يوافق على هذا الرأي حتى لايفصل بينه في المدينة المنورة وبين المسلمين في مصر ما نهر النيل مما اضطر عمرو بن العاص الى ان يؤسس مدينة جديده في معسكر العرب حول حصن بابلion شرق النيل في المنطقة المعروفة اليوم بمصر القديمه .

ولذلك ان تأسيس مدينة الفسطاط كاماشه كان افضل من اتخاذ الاسكندرية التي كانت في نظر المصريين جميعا رمزا لظلم الرومان واضطهادهم لهم ، كما ان موقع مدينة الفسطاط كان انساب كثيرا من الاسكندرية التي فقدت اهتمامها كمركز تجاري يتصل مباشرة بالقسطنطينيه عاصمة الدوله البيزنطيه .

وفضلا عن وقوع الفسطاط في قلب مصر وسط الولاء القبطي للعرب فـ ان موقعها كان يمثل حدثا طبيعيا اذ تحميء تلال المقطم من الشرق والجنوب ويحميه مجرى النيل من الغرب فضلا عن توطين بعض القبائل العربيه من بني وهدان على الضفة الغربيه من النيل زياده في تحقيق الامن للمدينة الجديده . ولم يبق للفسطاط غير جانب واحد مفتوح اثبت حنكة القائد العربي في اختيار موقع مدينته ذلك لأن هذا الفضاء الشمالي أصبح على مدى التاريخ الامتداد الطبيعي لمدينة الفسطاط وما تلاها من مدن

(١٥)

عربه لذلك لم يفتم عمرو بتلخيص هذا الجانب الشمالي الذي كان يمثل طريق الامدادات العربيه من الحجاز الى الفسطاط لستما بعد حفر خليج امير المومنين من النيل شمال الفسطاط الى القلزم (السويس) ، كما ان قرب مدينة الفسطاط من المزارع في الوادي المعيب بالنيل شرقاً وجنوباً با حق للفسطاط الشروط الاساسية لقيام المدن الاسلاميه ، من حيث دفع المضار وجلب المنافع .

ولايهمنا الجرى وراء التفسيرات المتعددة التي اطلقها الجغرافيون والمؤرخون لتفصيل اسم الفسطاط ، ولكن يكفي الاشارة هنا الى ما اورده القلقندي في "صبح الاعي" وابن منظور في لسان العرب من تفسيرات ، فمن المرجح ان العرب اطلقوا على المدينة التي اسسواها في مصر اسم الفسطاط بمعنى "المدينة" . كما اطلق من قبل على يثرب اسم "المدينة" ولكن المهم هو التركيز على تخطيط المدينة وبناء مساكنها ولعل اشهر المؤلفين العرب الذين كتبوا عن هذا التخطيط ابن عبد الحكم في "فتح مصر واخبارها" ، وابن دمقاق في "الانتصار لواسطة عقد الامصار" ، وابن سعيد الاندلسي في "المغرب" و القلقندي في "صبح الاعي" ، والمقربي في "الخطط" وعلى بهجت و جبريل في كتاب "حفريات الفسطاط" ، وكازانوفا Casanova في " GEOGRAPHIE FISCALE DE LA CITÉ DE FOSTAT" طبويغرافية الفسطاط ، والدكتور فريد شافعى في العمارة العربية وغيرهم .

وكما فعل العرب عند تأسيس البصره والكوفه نرى عمرو بن العاص يبدأ ببناء المسجد الجامع الذي لازال مكانه قائماً حتى اليوم و شيد الى جواره دارا له ، واسند عليه توزيع خلط المدينة الى لجنه رياعيه من رجالات العرب ، قاماوا بتوزيع الارض حول الجامع لجماعات القبائل التي تشكل عصب الجند و اخليط هؤلاء الخلط و بنوا الدور و المساجد و سميق هذه الخلط بأسماء القبائل او الجماعات التي اخليطوها واخذ اهل الخلط يشيدون المنازل و المساجد التي امتدت حول الجامع نحو الشرق و الشمال و الجنوب .

ومن المرجح ان دور الفسطاط التي شيدتها القبائل العربيه كانت متعددة واستخدم في بنائتها الطوب المحروق (الاجر) غير ان بعضها كان مبنيا بالحجارة مع تعریض الجدران بالادوار السفلی بشكل يوحى بصدق ما ذكره ناصر خسرو / من وصول (١٢٧٣/١٢٦٤هـ)

أدوار بيوت الفسطاط الى سبعة طوابق احياناً .

ويكفي هنا ان نشير الى المنزل الذى كشفت عنه هيئة الآثار أخيراً فى منقطة الفسطاط . وكان بالفسطاط ميادين و أسواق كما أُسْتَ بِهَا مبانع مختلفة وكان بها عدد كبير من المساجد والحمامات العامة .

ويمكن القول بأن كل خطة من خطط الفسطاط كانت تحتوى على مراافقها الخاصة بصورة مصغره أى من الحوانities المفتوحة على الطرق العامة و من القبسايريات أى الأسواق المقفلة و من المطاحن و الأفران و العمامات و المساجد و المطابخ هذا بالضافه الى مراافق عامة و مراكز تجارية و صناعيه رئيسية تتعامل في أنواع من المنتجات و السلع مثل سوق السمكين و سوق العطارين و سوق الفناشين و سوق الغرابليين .

و ما كشفت عنه الدفريات التي أجريت في الفسطاط يتضح لنا أن الشوارع و الطرق كانت ضيقه و تتفرع من بعضها على غير نظام معين وفي تعریقات لها بطة لها و كان بعضها ينتهي أحياناً بانسداد في آخره فكأنها حارات غير نافذه ، وكانت تنتشر بينها الدروب التي قد يصل عرض الواحد منها إلى متر فقط ، وكان كثير منها يغلق ليلاً من طرقه ، لمقتضيات الأمان ، ولايزيد عرض الشوارع و العارات الرئيسية عن ثلاثة أو أربعة أمتار .

أما من حيث تصميم العمارت بأنواعها المختلفة من دينيه و مدنية فإنه لم يكشف حتى الآن عن بقايا من أى منها يمكن الاطمئنان إلى تاريخه في زمن يسبق سنة ٢١٢/٨٢٢ م ، التي ينسب إليها أقدم أجزاء باقيه من جامع عمرو بن العاص .

أما الدور فيذكر المقرizi مثلاً : "أن منازل الفسطاط كانت مشيدة بالطوب الأذكن و البوس و النخيل " ( خلط ج ١ ص ٣٤٠ - ٣٤١ ) ولكن لغيره كذا ذكرت <sup>لقد بنى بالجرانيت ادوار لهضمه</sup> كما أن نظام توزيع الماء في هذه المنازل كان يتم عن طريق البرابخ الفخاريه وهي أنابيب مكونه من قطع طولها حوالي ٧٥ سم يلتضم بعضها بالبعض مما يشهد بالقدرة الفنية للمعماريين المسلمين في حدود الامكانيات التي اتيحت لهم آنذاك .

ولكن وسائل التخلص من الفضلات بتصريفها في خزانات تحت الأرض لم يمنع تسرب الماء و الرطوبة إلى أساسات الجدران في المنازل الأمر الذي كان يؤثر بطبيعة الحال على العمر الزمني لهذه الدور التي استخدم فيها الجص كمادة للمونة عند البناء بالأبار والقوالب الأخرى .

وعلى الرغم من العبارات المقتضبة التي أوردتها المراجع عن تخطيط الدور العربي بالفسطاط منذ إنشائها إلا أنها يمكن أن تستنتج منها أن دار الامارة التي أسسها عمرو بن العاص تبعاً للتقليد الذي انتشر في المدن الإسلامية كانت تقع في الشمال الشرقي من المسجد الجامع وعلى بعد نحو ٤ أمتار منه كما كان المسلمون حريصين غاية العرص على المحافظة على حرمات الناس وأهل بيوتهم فلم تكن الدور ذات تواfade أو شبابيك كبيرة تطل على الطرق والشوارع أو حتى على الجيران كما حدث بالنسبة لدار خارجه بن حمزة التي لم يسمح له بالبقاء على كوة في الطابق العلوي إلا بعد اختبار عمرو لها بأنها لا تكشف سوراته جيرانه ( ابن دقماق ج ٤ ص ٩ ) .

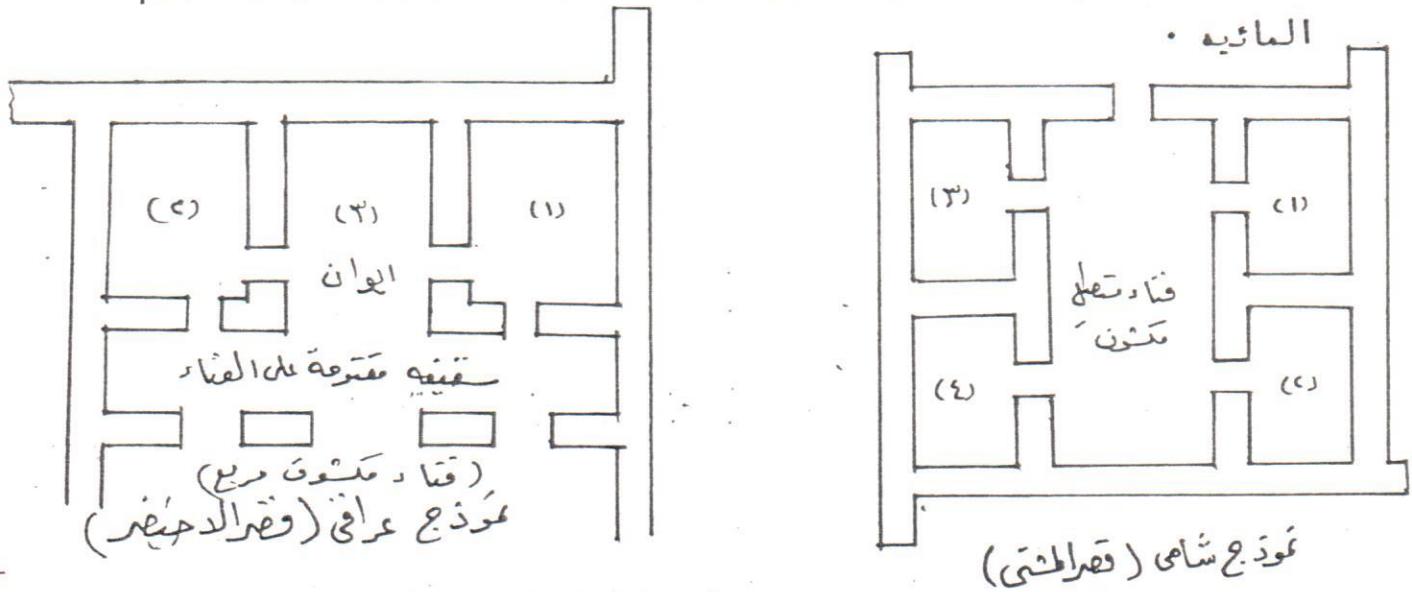
ونصل من ذلك إلى أن الدور كانت تستمد الضوء والهواء بصفة رئيسية من خلال أفنية تتوسط الوحدات السكنية المختلفة التي تتكون منها الدار كذلك كانت معظم المنازل أول الأمر تتكون من طابق أرضي فحسب ثم بدأت تتعدد الطوابق كلما ازدادت الكثافة السكانية وكل ذلك يجد ملنا نقرر أن بناء العوائير في الفسطاط قد خضع لقيود وشروط يفرض على الناس احترامها وكان على الوالي أن يراعي تطبيقها والالتزام بها

ويرى الأستاذ الدكتور فريد شافعى ( العمارة العربية ص ٣٥٤ - ٣٥٥ ) أن تصميم الدور بالفسطاط كان يتم وفق نموذجين رئيسيين أحدهما شامي يقتبس نموذج قصر المفتى ، وقصر الطوبى في باديه الأردن حيث يجد الفنان المكثف يتوسط مستطيلاً في كل من جانبيه الطويلين حجرتان ملتمقتان بعضهما

(١٨)

ونموذج آخر عراقي يتمثل في قصر الخضر جنوب غرب مدينة كربلاً بالعراق حيث تجد الفناء المكشوف يقرب شكله من المربع وفي كل من جانبيه المتقابلين مجموعه من ثلاث وحدات الوسطى منها أيوان مفتوح على الفناء مباشرة أو على سقيفة تتقدمه مفتوحة على الفناء، وربما انتشر النموذج الشامي بشكل أكبر في عصر الدولة الاموية كما انتشر النموذج العراقي في العصر العباسي ومهما كان نموذج الدار فأنت كانت تشتمل على الملحق المواريث والنافورات والسلبيات أو الشاذروانات وأحواض الزهور ( عباس حلبي : تطور المسكن المصري الاسلامي منذ الفتح العربي حتى الفتح العثماني ) ، كما كانت للدور مداخل عادة منكسرة ، وكانت الجدران تكتسي بالبساط المزخرف بالنقش و الصور و الرسوم

المائية .



نموذج شامي ( فهراتي )

و الغالب ان حصول هذه الدور على المياه كانت سهلة ميسورة لقرب المدينة من النيل فينقل السقاون المياه عن طريق الاسطال النحاسية أو الروابيا الجليدية أو القدور الفخارية على ظهور الحماليين أو ظهور الحيوانات، أما من بعد دورهم عن النيل فكانوا يحفرون الآبار في منازلهم على اعماق تختلف باختلاف بعد المكان عن النيل ، ولكن ذلك كان يحتاج إلى إبعاد آبار المياه العذبة عن آبار الصرف

للفضلات خشية انتشار الأوبئة و الطواعين .

وتعود أقدم المعلومات لدينا عن الحمامات العامة إلى أيام عمرو بن العاص الذي بني حماماً اشار إليه ابن دقاقيق ويعتبر أول حمام بني في مصر الإسلامية وكان صغيراً بالنسبة للحمامات البيزنطية و من ثم عرف بـ "حمام الفار" لصغره ولكنه كان يشتمل على نفس الوحدات في الحمامات الرومانية من حيث وجود العجرة الباردة التي توصل إلى حجره دافئه ثم حجره ثالثه ساخنه وذلك مع وجود المخلع والفاسقى والفرن والملحقات الأخرى .

ولعل نظام الصرف لمياه الفضلات في هذه الحمامات ساعد على خرابها بسبب تسرب الرطوبة إلى جدرانها فلم يبق لها منها موزع واحد .

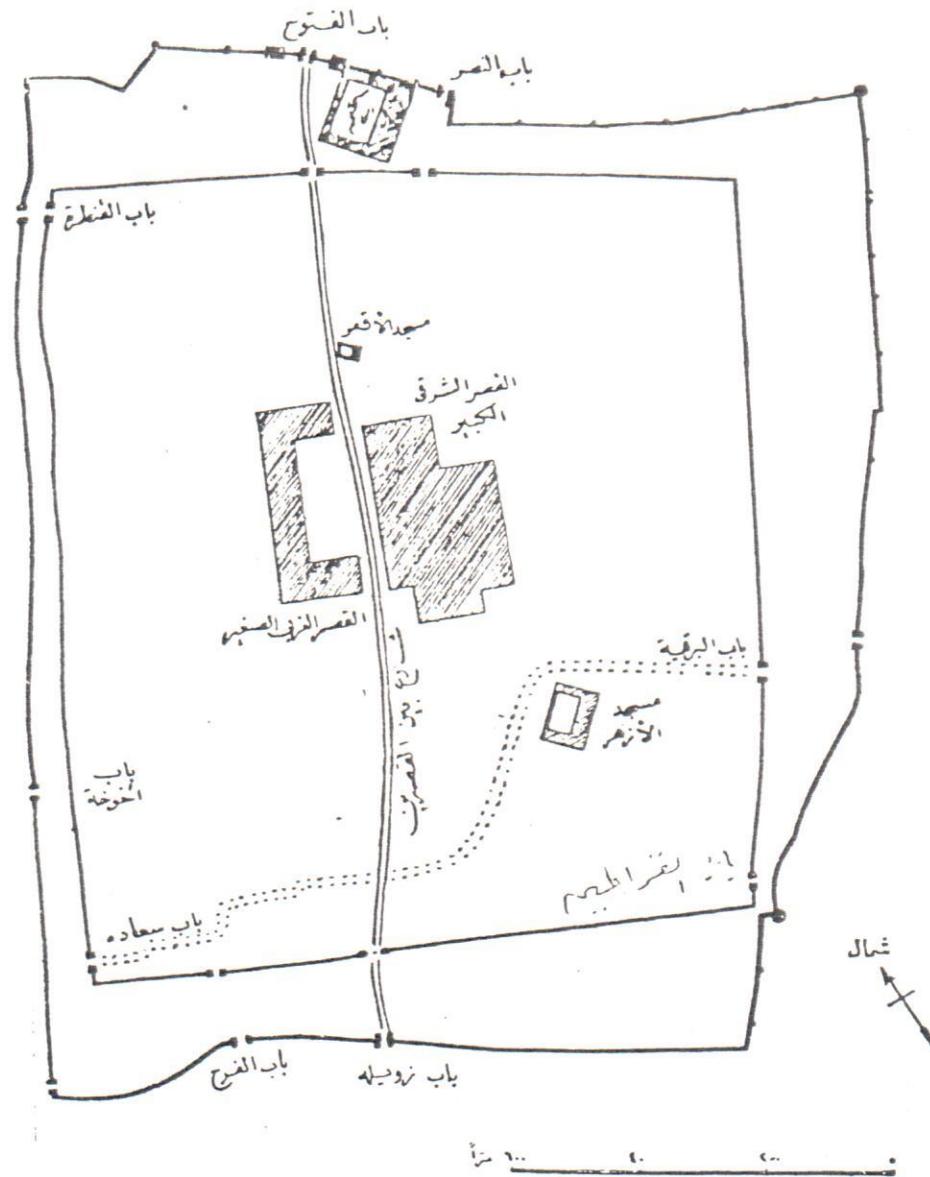
وقد استمرت الفسطاط منطقه لجنب السكان بعد تأسيسها وفي عصور تالية أمويه و عباسيه و طولونيه وأخشيديه و فاطميه رغم بناء عوام و مدن أخرى في شمالها هي العسكر و القطائع و القاهرة و ظلت هذه هي حال الفسطاط إلى أن نكبت في عهد الخليفة الفاطمي العاضد سنة ٥٦٥ هـ / ١١٧٩ م حين خاف الوزير الفاطمي شاور من وقوعها في أيدي عموري ملك بيت المقدس الصليبي فأمر بهجرة سكانها وبعث بعشرين ألف قارورة ذ فط و عشرة آلاف مدخل نار فارتفع لهيب النار و دخان الحريق في الفسطاط لمدة ٥٤ يوماً اعتباراً من ٢٩ صفر سنة ٥٦٥ هـ . وظل خرابها قائماً حتى أمر صلاح الدين الايوبي بالعوده إلى تعميرها و حمايتها ببناء سور من غيرها من المدن الإسلامية الواقعة في شمالها .

د. عبد الرحمن فهمي محمد .

١٩٨٤/٦/٣



رسم تخطيطي يوضح موقع المسطاط والمسكر والقطائع



شكل (٢) - حدود القاهرة على عهدي «المعز» و«بدر الجمال»  
(من رسم المؤلف)

صورة تأثر حصر ٤٠٠ متر